

سَيِّرًا كُنْتَ، سَيِّرًا سَوْفَ تَبْقَى!

هذه مرثية غير عادية لزعيم لا كالزعماء يُقال له الحبيب بورقيبة.

[الخفيف]

- 1 -

وقد تحضن الرزايا الصّدورُ
كذا يعدل الكبير كبيرُ
يصلبُ بالنار معدن مصهورُ
بالبلايا ممرس وخبيرُ
أينا دافع، وأيُّ مغيرُ
متحدًّا لا يزدهيه غرورُ
لا شهيقٌ يُذلها، لا زفيرُ
كما يسفح الدّم المهدورُ
ومن ثورة الضمير هديرُ
أسهولُ دروبها أم وعورُ
عندها المرُّ، والعسيرُ يسيرُ
نضح منها ولا تحذيرُ
الصخرُ موج المحيط إذ يستطيرُ
بين بين ولا اعتدال وقورُ
طبق طبعي: لا تشكي بل ثورُ
ما بصدري بجبهتي منشورُ
عذارى يزينهنّ السّفورُ

إنّ صدريّ حزنٌ يضمُّ رزاياهُ
يكبرُ الصبرُ قدرَ ما يكبرُ الخطبُ
يصلبُ الطبعُ بالهُموم كما
إن أكن نِدّ محتي فلائي
عندما ألتقي بها ليس يُدري
إن شأني مع البلايا صمودُ
وشهيدي قصيدي رغم حزني
فهي ليست مرثيةً تسفح الدّم
هي من فورة المشاعر إعصارُ
تنبري في اتجاهها لا تُبالي
هيّن عندها العظيم، مريءُ
بنتٌ وجداني العنيدة: لا يبلغُ
تحدّي الضنى كما يتحدّي
وتغالي تطرفًا: لا حياءُ
هكذا شئت أن تكون فكانت
عشت عمري على شريعة طبعي:
ليس لي عقدة التقيّة: أفكاري

لِي غَيْرَ مَا تَخُطُّ السُّطُورُ
وَمَا غَيْرُهُ عَلَيَّ أَمِيرُ

فَأَقْرَأُونِي عَلَى سَطُورِي ! فَلَآ أُسْرَارُ
وَضَمِيرِي هُوَ الْمَحْكَمُ فِي أَمْرِي

- 2 -

بَعْضَ حِينٍ ! فَلَإِي حَدِيثُ أَخِيرُ
قَلْبُهُ طَافِحُ أَسَى، مَوْتُورُ
الشَّيْبُ مَا أَبْدَعَ الشَّبَابُ النَّضِيرُ
ثُمَّ بُؤْسِي، وَالْمَجْدُ نَارٌ وَنُورُ
فَلِلْحُكْمِ هَبَّةٌ وَفُتُورُ
وَالْحُكْمُ عُمْرُهُ مَبْتُورُ
مَجْدًا، فَسَلْبُهُ لَا يَضِيرُ
الْمَرَّ هَذَا الْجُحُودُ وَالتَّزْوِيرُ
مَنِيرًا إِذْ أَطْبَقَ الدَّيْجُورُ
خَبِيثًا وَآمِرًا مَأْمُورًا⁽¹⁾
فَاسْتَرَا حَتَّ مَعَاصِمٍ وَنُحُورُ
تُونِسِيٍّ، وَلَمْ يَقُمْ دَسْتُورُ
يُجْدِي مَلَامٌ؟ أَوْ يَنْفَعُ التَّذْكِيرُ؟
يُدَوِّي؟ أَيْنَ النَّدَاءُ الْجَهِيرُ؟
أَيْنَ التَّطْبِيلُ وَالتَّزْمِيرُ؟
لَا دَعْوَةٌ وَلَا تَبْشِيرُ
حِينَ جَدَّتْ بَعْدَ الْأُمُورِ أُمُورُ
جِيَاعٌ، وَغِيَضٌ فِيهِ الشَّعُورُ
لَا ظِلٌّ عِنْدَهُ، لَا غَدِيرُ
سَمَاسِيرُهُمْ تَوْفِيرُ

أَيُّهَا الرَّاحِلُ الْحَزِينُ ! تَمَهَّلْ
وَحَدِيثِي إِلَيْكَ نَجْوَى نَجِيٍّ
قَدْ تَهَاوَتْ بِكَ السَّنُونَ وَأَبْلَى
تِلْكَ أَطْوَارُ قِصَّةِ الْمَجْدِ: نَعْمَى
لَسْتُ أَسَى أَنَّ الْمَقَادِيرَ أَقْصَتَكَ
عُمُرُ الْمَجْدِ ذُو امْتِدَادٍ مَعَ الْأَمَادِ
مِثْلَمَا الْحُكْمُ لَمْ يَزِدْ مَجْدَكَ الشَّامِخَ
لَسْتُ أَسَى لَذَاكَ ! إِنَّ أَسَايَ
فَكَأَنَّ لَمْ تَكُنْ لَتُونَسَ مِصْبَاحًا
إِذْ تَوَلَّى مَصِيرَ تُونَسَ مُحْتَلًّا
وَكَأَنَّ لَمْ تَفُكْ قَيْدًا وَطُوقًا
وَكَأَنَّ لَمْ يَسُدْ بِفَضْلِكَ حُكْمُ
نَسِيِّ الْقَوْمِ؟ أَمْ تَنَاسَوْا ! فَهَلْ
أَيْنَ ذَاكَ الْهَتَافُ فِي كُلِّ بَطْحَاءِ
أَيْنَ «نَفْدِيكَ بِالِدَّمَاءِ وَبِالْأَرْوَاحِ»؟
أَيْنَ رَاحَ الرُّوَادُ؟ أَيْنَ «الْحَوَارِيُّونَ»؟
كَفَرُوا بِانْتِمَائِهِمْ وَاسْتَجَدُّوا
أَيْنَ شَعْرٌ تَحَلَّبَتْ مِنْهُ أَطْمَاعُ
سَالَ سَيْلَ السَّرَابِ فِي فَدْفِدِ أَغْبَرِ
مُبْدَعُوهُ إِنْ كَانَ ثَمَّتْ إِبْدَاعُ

1 - الأمر المأمور هو الباي الذي كان يحكم البلاد صوريًا تحت سلطة المستعمر الفرنسي.

رَصَدُوا مِنْ نِفَاقِهِمْ رَأْسَ مَالٍ
وَنُفُوسَ الْمُنَافِقِينَ بَغَايَا
أَيْنَ أَهْلِ الْوَفَاءِ؟ قَدْ أَنْكَرَ الْأَحْبَابُ
«قَلْبُوا النَّعْلَ»⁽¹⁾ عِنْدَمَا انْقَلَبَ الْوَضْعُ
سُحِبَ الْغَارُ مِنْ عَلَى الْجِبَةِ الشَّمَاءِ
هَكَذَا تُجْحَدُ الْأَيْدِي وَيُجْزَى

- 3 -

ثَمَّرُوهُ، وَأَثْمَرَ التَّثْمِيرُ
ضَاقَ عَنْهَا الرَّصِيفُ وَالْمَاخُورُ
أَحْبَابِهِمْ، وَنَدَّ الْعَشِيرُ
وَفَرُّوا كَمَا تَفَرُّ الطَّيُورُ
فَالشُّوكُ حَوْلَهَا مَضْفُورُ
بِالتَّجَنِّي صَنِيعُكَ الْمَشْكُورُ

كَمْ سُعَاةٌ سَعُوا إِلَيْكَ! وَمَسْعَاهُمْ
مَلَأُوا حَوْلَكَ الْفَضَاءَ ذَبَابًا
أَنْتَ أَعْلَيْتَ شَأْنَهُمْ فَتَعَالَى
هُمُ رُؤُوسُ جَوَفَاءٍ فَهِيَ طَبُولُ
هُمُ عَصَافِيرُ فِي أزدحامِ الْمُلَمَّاتِ
هُمْ عَلَى مَشْهَدٍ مِنَ الْعَيْنِ حُمَلَانُ
هُمْ أَوْلَاءُ الَّذِينَ كَانُوا لِنَعْلَيْكَ
هُمْ أَوْلَاءُ الَّذِينَ أَكْرَمْتَ دَارُوا
وَطَأُوا مَجْدَكَ الْمُئِنِّفَ وَنَالُوا
أَنَا أَدْرَى بِهِؤُلَاءِ: فَلَا عَهْدُ
قَصَبُ الرِّيحِ هُمْ، لَهُمْ مِنْ
الْفُؤَا غَدْرُهُمْ فَهَانَ عَلَيْهِمْ
فِي سَبْحَتِ بِحَمْدِكَ أَرْمَانًا
مِثْلَمَا مَجَّدْتِكَ بِالْأَمْسِ رَاحَ
يَا لَعَارِ الرَّجَالِ! يَا وَصْمَةَ تُوْمِي
وَصْمَةَ فِي تَرَاثِنَا تَقْرَفُ

خَدَاعٌ، وَوُدُّهُمْ تَغْرِيرُ
ثُمَّ حَطَّوْا، وَبَعْدَهَا لَمْ يَطِيرُوا
قَاصِرٌ وَاسْتَطَالَ مِنْهُمْ قَصِيرُ
وَقَلُوبٌ صَمَاءٌ فَهِيَ صُخُورُ
وَفِي فُسْحَةِ الْأَمَانِ صُقُورُ
وَفِي خُفْيَةِ ذَيْبٍ تُغْيِرُ
بَسَاطًا يُمَدُّ حَيْثُ تَسِيرُ
يَوْمَ رَاحَتْ بِكَ الرِّيَّاحُ تَدُورُ
مِنْكَ لَمَّا هَوَى بِكَ الْمَقْدُورُ
وَتِيْقٌ، لَا ذَمَّةٌ، لَا ضَمِيرُ
طَبَاعِ الرِّيحِ ذَرْيُ الْغُبَارِ وَالتَّصْفِيرُ،
أَنْ يُنَالَ الْقَفَا وَتُرْمَى الظُّهُورُ
وَتَسْبِيحُهَا نِفَاقٌ وَزُورُ
الْيَوْمَ يَرْمِيكَ غَدْرُهَا الْمَسْعُورُ
إِلَيْهِمْ فَضَّاحَةٌ وَتُشِيرُ!
الْأَجْيَالُ مِنْهَا وَتَشْمُرُ الدَّهُورُ

1 - قلبوا النعل: تعبير شعبي يُفيد الهروب.

سوف تبقى على الضمائر كابوسًا
قد يطيح الإعصار بالدوحة الفرعاء
ثم يشقق الأديم وينمو

- 4 -

مُنِيخًا تنهدٌ منه الصّدورُ
لكن تبقى ترفُّ الجذورُ
من جديدٍ دوحٌ عتيّ قديرُ

أيها الراحل المودّع! رفقًا!
هو جرحٌ ينزُّ ما نزت الذكرى
هو جرحي أنا! له من وريدي
بورك الجرح! ينهلُ المجدُّ من
بورك الجرح! إنه في انفرادي
ضيقتي منه فرجةٌ، وعذابي
عجبي من طوارئ الدهر! فالضراءُ
بوركت نخوة الخلود! لها من
ميزة الخالدين يا خالد الذكر
غيبٌ عن عيوننا ولهم في
إن تكن بينهم فإنك فيهم
سيّدًا كنت، سيّدًا سوف تبقى
تشهد الأرض والسماء وما بينهما
شامخٌ أنت في الحياة وفي الموت
فلترجم بما تشاء السرايب!
العقول الصغارُ تحسب أن المجدد
يا لسخف العقول! هيهات أن
دعك من صرعة الدراويش! يرخيها
إنها رغوّة على شفة الموجة
ثم تنهد، ثم تنسأخ في السطح

إن خلف الضلوع جرحًا يمورُ
بأوجاعها فشبّ السعيرُ
دافقٌ مضرّم النّزيف يفورُ
منزفه فهو سلسيلٌ نميرُ
لي أنيسٌ وفي سُهادي سميرُ
منه مستعذبٌ، وحزني حبورُ
سراءٌ، والنّذيرُ بشيرُ
مُهجات المُخلّدين مهورُ
حياةٌ لا تحتويها القبورُ
القلب مأوى، وفي الضمير حضورُ
سيّد مفردٌ، وهم جمهورُ
تحتفي باسمك «الحبيب» العصورُ
أنك الكبيرُ الكبيرُ
مدلٌ بما صنعت فخورُ
وتنفث ما تستطيع الجحورُ!
هش: تدميره ميسورُ
يُدرِك سرّ الخلود عقلٌ صغيرُ!
بخورٌ، يشدها بنديرُ
تشتدُّ لحظةً وتخورُ
وفي غمرة الخضم تغورُ

الأعالي بين البروج يطير
يُضنيك كيدٍ يكيدُه شَريرُ
ذو مأس، ومُنتهاهُ كسيرُ
لإسعادِ تونس ونُذورُ
وفي الخيرِ حُمدُ التّبذيرُ
ويُنمي حُطامه التّقديرُ
سليبٌ وشعبُه مَقهورُ
حماها وشعْبُها منصورُ
الموعِدُ الحقُّ واستبان المصيرُ
حنونٌ ومُستقرُّ قَريِرُ
مُستقيماً يحلو عليه العُبورُ!
له العزُّ ناصرٌ وظهيرُ
وتهوي تحت السّياطِ الحميرُ...
ويَرُدّي من دُعره المذعورُ
اليوم في الكونِ مسرحُ محظورُ
وشرورٍ معمورُها مهجورُ
يصعدُ كيدٌ ولا تطولُ شرورُ
عادلاً فهو حاكمٌ لا يَجورُ

أيّها الرّاحلُ الطّليقُ! إلى أعلى
اهنأ الآن! واطمئنّ! فلن
عشتَ عُمراً مُبلّلاً: مبتداهُ
كلّ أيّامه الطّوالِ قرابينُ
شرفُ العُمُر أن يُبذَرَ في الخيرِ
ورَخيصُ الأعمارِ يُبَطِرُه الشُّحُ
جئتَ هذي الحَيّاةَ والوطنُ الغالي
ثمّ فارقتَها وتونسُ محميّ
دَقّت السّاعةُ الرّهيبَةُ، حلّ،
وتلقاك من ثرى تونسِ حِضنُ
حَبّذا الموتُ للخلودِ صراطاً
إنّ موتَ العزيزِ نصرٌ على الموتِ
مثلاً تسقطُ الجيادُ على الشّوطِ
... يردُّ الموتُ في ميادينه الشّهْمُ
يا طليقَ الجناح! لم يبقَ بعدَ
فاهجُر الأرضَ! إنّها دارُ كيدٍ
وانطلق صاعداً إلى حيثُ لا
وسيقضي التّاريخُ فيك قضاءً

عزّك عزيّ مُستلهمُ مُستنيرُ
محفورٌ بوُدّي، بغيرتي محفورُ
مُثقالاً صابٌ منه صوبُ غزيرُ

أيّها الرّاحلُ العزيرُ! ومن
أنت منّي في حَبّة القلبِ
هُوَ ذا ما رغبتَ منّي⁽¹⁾ سحاباً

1 - أثناء أحد اللقاءات التي كان يخصني بها بين حين وحين فاجأني الرئيس بورقيبة رحمه الله برغبته أن أرثيه إذا قدر الله أن يسبقني إلى جواره.

وَبَعْضُ عُبَابِهِ مَسْجُورٌ
وَحِينَئِذٍ تَمَرُّدٌ وَزَيْرٌ
هَادئًا لَا يَشُورُ، لَا يَسْتَشِيرُ
الْقَذْفِ، مِنْ جَوْفِهِ السَّعِيرِ يُفُورُ
فَشَفَانِي، وَرَاقِنِي التَّفْجِيرِ
يُهِدِيكَهَا وَدَوْدُ غَيُورٌ
وَبِمَا عِنْدَهُ يَجُودُ الْفَقِيرُ

بَعْضُهُ سَالَ هَادئًا فِي مَجَارِيهِ
فَهُوَ حِينًا تَوَجُّعٌ غَطَّهُ الْكَبِيرُ
كَنتُ أَدْعُو بِهِ رثَاءَ حزينًا
فَأَتَانِي بُرْكَانٌ غِيظٍ عَنِيفٍ
فَجَرَّتْهُ حَمِيَّتِي وَوَدَادِي
فَتَقَبَّلَهُ نَفْحَةً مِنْ صُرَاحِ الْوُدِّ!
نَفْحَةً مِنْ مَوَدَّتِي هِيَ كَنْزِي

- 7 -

وَمِنْ الْحُبِّ جُرْأَةٌ وَغُرُورٌ
الْيَتَامَى، وَالْيَتِيمُ رُزْءٌ مَرِيرٌ
رَحِيْبٌ، وَجَاشَ جَاشٌ صَبُورٌ
خِرَافِيَّةٌ وَلَا تَصْوِيرُ
وَبِآيَاتِهِ تَغَنَّتْ بُحُورُ
رَفٌّ فِي جَانِحِيهِ حُبٌّ طَهُورٌ
لَا شَهِيْقٌ يُذِلُّهَا، لَا زَفِيرٌ

يَا رَيْسِي! وَكِدْتُ أَدْعُو «حَبِيْبِي»
حَسْبُ حُزْنِي عَلَيْكَ هَذَا التَّرَاجِيْعُ
هِيَ حُزْنِي طَغَى فَضَاقَ بِهِ صَدْرُ
هِيَ حُزْنِي مَجْرَدًا: لَا تَهَاوِيلُ
وَهِيَ حُبِّي: بِهِ تَطَامَتْ بِحَارُ
هِيَ حُبِّي الطَّهُورُ: يُكْبِرُهُ مَنْ
وَهِيَ فِي لَوْعَةِ الْأَسَى ذَاتُ كِبَرٍ

أفريل 2000